

جماليات المكان في الرواية العراقية الموصل في (شظايا قلب) نموذجاً

▪ أ.د. بشرى البستاني

1

يشكل حضور المكان في الأدب والفنون اليوم وفي النقد بشكل خاص مبحثاً مهماً من مباحث المعرفة ووعياً لفكرة الحيز وفضاءات الفعل الإنساني؛ كون المكان عنصراً مهماً من عناصر احتواء التجربة الإنسانية واقعا وعلى مستوى الفن والفعل المجازي معا؛ فالمكان قضية جديرة بالبحث والتقصي ذلك أنه مسرح الفعل الإنساني وموطن انتمائه واحد مكونات وجوده الثقافي والاجتماعي لما له من أثر على الانسان منتج الأدب والفنون، وفي الإبداع والنقد هو الإشارة التي تلقي الضوء على متن النص وتضئ أطراف التجربة وتسهم في إضاءة العمل جمالياً وفي الكشف عن أهمية فضاءاته، فلحضوره إذن في النقد أهمية إستراتيجية في بلورة نص متميز، ولابد من التنويه بدءاً إلى أن المكان اخذ تواصله وامتداده أساساً من النظرية الفلسفية منذ أن عرف أفلاطون المكان (حاوياً للشيء وقابل له)^(١) وجاء النقد الحديث ليهتم بدراسته والكشف عن أهميته مركزاً على أثره في حياة الفنان وفي الرؤية الإبداعية ودوره في تشكيل المبدع والنص عموماً.

لقد اتسمت الظاهرية بشدة الاحتفاء بالمكان وارتبط الإحساس به تشكيلاً وتأويلاً بالبعد الذاتي أو النفسي فعادت الأمكنة تتشكل طبقاً لإحساس الذات بها^(٢) وانبثقت تقسيمات جديدة للمكان أبرزها ما جاء به (باشلار) على وفق تقسيماته الثنائية التي صارت مشاعة ومعروفة في كتابه جماليات المكان، من أليف ومعاد ومغلق ومفتوح ن ومظلم ومضيء، لقد انتقل المكان من موقعه الفيزيائي إلى الموقع

١. نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، حسن العبيدي، مراجعة وتقديم د. عبد الأمير الأعسم، ١٩٠٩، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٨٧.

٢. شعرية المكان، قراءات في الشعر العراقي الحديث، د. ستار عبد الله، ب حوث المرشد الخامس عشر، ١٩٩٩.

الثقافي مارا من خلال الكائن الإنساني، لان العلاقة القائمة بين الإنسان و المكان تتسم بالألفة و التلاؤم مرة وبالعدائية والوحشة حسب الحالة النفسية التي تشكل التجربة الفنية، كون المكان يدرك إدراكا مباشرا، وهذه العلاقة الجدلية المستمرة بين الإنسان و المكان تتم بناء على قانون الفعل ورد الفعل إذ بقدر ما يؤثر الانسان بالمكان فان المكان يؤثر بالإنسان وفعالياته المستمرة، و لذلك كانت أهمية المكان تنطلق من كونه مفهوما يقوم على الاختلاف و المباينة، فعلاقة الإنسان بالمكان تختلف من فضاء لآخر لأنه ليس عاملا طارئا في حياة الكائن البشري وإنما هو معطى سميوطيقي، إذ لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي؛ وإنما يتسرب حافرا مسارات عميقة في مستويات الذات المختلفة ذلك أن المكان هو الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا و العالم لأنه فضلا عن دوره في بنية رؤية العالم لدى الأفراد و الجماعات فانه يكرس اختلافنا الثقافي على صعيد السلوك الحركي، بيد أن المكان بقدر ما يمتاز بالوضوح و الإدراك الحسي فهو يركن إلى الغموض و المجهول على الصعيد الدلالي^(٣) في العمل الفني و النصوص الأدبية، لأنه يعني بدءا تدوين التاريخ الإنساني كما يعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش و الوجود و لفهم الحقائق الصغيرة و لبناء الروح و التقاط التراكيب المعقدة و الخفية، و لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال الوقائع^(٤).

إن المكان في الأدب عالم تشكله اللغة الأدبية لذلك فهو لا يكاد يلمس أو توضع له حدود و أبعاد لكنه يظل يمت ضمن مقصدية الكاتب إلى الواقع بصلات و امضة موحية، و معبرة و حاملة لمثيرات و دلالات شتى منها ما هو تاريخي، سايكولوجي، ميتولوجي الخ.

إن الطبيعة تكتسب في دخولها إلى عالم الأدب طاقة جديدة مضافة إلى طاقتها العيانية التي تسهم في إثراء فعل الحياة بالواقع، فهي تتشكل داخل النص و وفقا لقوانينه الإبداعية التي تعمل على التحويل المستمر فالأمكنة و المدن و الأنهار و البحار و الحدائق تعاد صياغتها في النص الأدبي لتصير عالما جماليا جديدا لا

٣. شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لادوار الخراط نموذجا، خالد حسين، ٦٤، ٦٣، كتاب الرياض، ٢٠٠٠.

٤. إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، ٣٩٥، ٣٩٦، دار الشؤون الثقافية العامة، ط. ١، ١٩٨٦.

يعكس الواقع الذي استمد الادب بعض الإشارات منه، بل هو يبني عالمه المتخيل الجديد ضمن قانونه الأدبي الذي ينفذ عنه أثقال الواقع ويتجرد من عبء ما هو مادي قابع على أرضية ساكنة، ولذلك فالأماكن تتأنسن مرة، وتتحول إلى رموز أخرى، وهذه الرموز تحمل في أعماقها كل ما هو زاخر بنبض بالحياة الممتدة جذورها في الزمان والمكان من أعماق الطفولة والصبا إلى أعماق المستقبل في غيابه و حجبه.

2

إذا كان الشئ يعد جميلا من خلال ما يوقظ فينا من فرح كما يقول فلاسفة علم الجمال، فان الطبيعة بما فيها من تنوع وألوان وشجر وهضاب وجبال وسهول ووديان تشكل مصدرا مهما من مصادر الجمال والتناغم والانسجام فالمياه الجارية أو المتدفقة واحدة من مظاهر الفتنة ووسيلة من وسائل التلاؤم في الطبيعة و الحياة قبل أن تتسع لتحمل إسقاطات الإنسان عليها وما يحس من الم و أمل و مشاعر إحباط أو غموض تملحها حياته و أحاسيسه البالغة الصعوبة من نبي الله ادم و حتى قيام الساعة، إن ارتباط الجمال بالأخلاق في الأديان كافة وعند الكثير من فلاسفة العصر ولاسيما عند (كانت) زاد الاهتمام بشأن الجمال حينما أكد الاخير أن التحديد المقولاتي للجميل نضير للخير الأخلاقي^(٥) و تعددت حوارات المفكرين و الفلاسفة والنقاد حول معنى الجمال والجميل و حول نسبيته أو ثبوت سمات معينة فيه، لكنهم يكادون يتفقون على المعنى العام للجمالية كونها أوسع من مجرد البحث في (الجمال) لأنها لا تشير إلى الجميل حسب ولا تبحث في سمات الجمال وحدها بحثا فلسفيا، ولكنها تبحث في الأفكار والمعتقدات التي دارت و تدور حول الفن و الجمال و مكانتها بالحياة و أهميتهما للإنسان^(٦).

٥. أطلس dtv الفلسفة، بيتر كونزمان، فرانزبوركارد، فرانز فيدمان، ت، جورج كوتورة، ١٤٥، المكتبة الشرقية، بيروت، ٢٠٠١.

٦. الجمالية، ر. ف. جونسون، ت، د. عبد الواحد لؤلؤة، ١٢، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، موسوعة المصطلح النقدي، ٣- ١٩٧٨.

3

لقد تمكنت رواية (شظايا قلب) للروائي الأستاذ الدكتور نجمان ياسين^(٧) من الارتكاز سرديا على حضور نهر دجلة واحد أ من رموز الطبيعة المهمة التي ينهض عليها وجود الإنسان وحضارته واستقراره في مدينة مهمة من مدن العراق، إذ ينهض عليها وجود مدينة الموصل العراقية التاريخية بحضارتها العريقة الممتدة عبر العصور ستة آلاف عام، وبآثارها التي حملت جهد الإنسان العراقي المثابر من عصر ما قبل الميلاد وإلى آخر صاروخ سيطلقه العدوان على ارض الموصل وعلى شعبيها المجاهد الذي افتدى قيمه وتاريخه وأرضه بالنفيس من دم شهدائه وبما تهدم من مؤسساته العلمية والأثرية والاقتصادية التي بناها بجهد ومثابرة أبنائه فكان الهدم يدين العقود العراقية الأخيرة الزاخرة بالتخريب.

ولعل جمالية هذه الرواية تكمن في وداعة لغتها و عفوية سردها الواعي بما يكتب، وبلغتها الصافية التي اعتمدت الرشاقة والتركيز معبرة عن وجع العراقيين الذي تزداد كثافته يوما بعد يوم بزيادة المحاصرة والقتل والإبادة، وبتلون فنون العذاب النازل على الإنسان والطبيعة والأشياء، على المساجد والجوامع والكنائس وعلى البيوت بأبرياءها والشوارع بمارتها وفقراء الباعة فيها.. هنا حيث تنشر الطائرات صواريخها في سماء المدينة، وتنشر الصواريخ شظاياها، لتقوم الأخيرة بمهمة الانتشار حينما تبث السموم مبيدة الحرث والنسل، ومشوهة الأجنة في أرحام الأمهات، وزراعة المرض في خلايا الإنسان أوراما وعاهات..

هل تنتهي رواية شظايا قلب إلى الرواية السير ذاتية؟ ليس هذا موضوع قراءتنا وإن كانت الرواية تحمل من سمات وشروط الرواية السيربية الكثير، لأن موضوعنا هو الوقوف عند تشكل مدينة الموصل في هذا النص وعلاقتها بإنسانها، وبإشاراتها الواقعية وعمقها التاريخي والميثولوجي والحضاري، والكاتب يروي كل ذلك منطلقا من نظرة ثاقبة إلى الزمن معلنا عن ذلك منذ الصفحة الأولى:

٧. الرواية منشورة في جريدة الزمان في ثلاث عشرة حلقة من ٥ آذار حتى ١١ حزيران ٢٠٠٦. حلقة اسبوعيا.

(اعرف أن كل شي يمضي ولكن النسيان لا يأخذ كل شيء)

(الرواية، ١)

ففي الأشياء ما يستعصى على النسيان إذ قدر له من الأزل أن يمكث في الأرض، أما الزيد فيذهب جفاء..

ومن خلال هذا الموقف من الزمن الجاري إلى مالا نهاية، المستمر في جريانه الدائم يستعين الكاتب برمز النهر الجاري ليكون مرتكزا للسرد في تشكيل النص، وهكذا تنهض دجله لتكون الشاهدة على الأحداث منذ نعومة الأظافر وحتى آخر الوقائع، ولتظل نهرا وأنوثة ورجولة هي الملاذ وهي الخلاص وهي الفضاء الذي حفظ كل الجزئيات والكليات في حياة راو يعيش الحياة حتى في أحضان الموت.. وهو في أحضان الموت بالغرفة الرصاصية يصغي إلى وقع هدير الزمن الذي يشكل الحياة عينها لأنه لا زمن خارج الحياة التي تمضي معه بلا توقف ولا انقطاع ولا تضاريس للحياة خارج الزمن الذي يحتويها.

(قلبي كليمي في هذه العتمة الدامسة والنهر أنيسي
فانا اسمع النهر من قلب هذا الكفن....أصغي إلى هدير
موج النهر المقبل من أعالي الجبال والمنحدر صوب
المجهول.....
النهر جسر الخلاص، و الرحم الذي يطفئ أو يؤجل
هبوب العاصفة)

(الرواية، ٢)

ثم يعتمد الراوي إلى تعيين اسم النهر توا في الصفحة الثالثة من الرواية:

(وكيف يندفع شذو بلابل الجزر الهائمة في دجلة
الموصل ليتغلغل في قلبي ويورثني هذا الشجن..)

الرواية، ٣.

ويلتحم ماء النهر بتراب المدينة المتلاحم معها في المحنة، معانقا جذور شجرها وأدغالها وأثار حضارتها قلاعاً باذخة عبر الزمن، متحدين العدوان، مذكرة إياه بالاندحار:

(ما معنى أن ترتعش الأشجار حتى كأني اسمع نحيبها
في هذا الشتاء الممسك بتلابيب الروح، شتاء سماؤه
حريق احمر يجثم بظلاله الثقيلة على المدينة
المأخوذة بسلسبيل الماء المقبل من اعالي الجبال،
المدينة التي تغفو قلعتهما الاتابكية القديمة وقد
ضمت في أعماقها ذلك الحزن الدفين المتأتي عن
التصدع في جسدها الشاهق..)

(الرواية، ٣)

إن الراوي يذكرنا دوماً بمنابع النهر الآتية من الجبال شمال المدينة وكأنه يصير
على التذكير بوحدة ارض العراق ووحدة جذورها الحضارية المتصلة في حلقات
مترابطة يسلمها حيز زمني لآخر في تواصل خلاق وتجدد هو سمة الحضارات الحية
التي ما إن تصاب بالوهن حتى تثب مرة أخرى مواصلة رحلتها الإنسانية من جديد.
ودجلة هنا بادخ متدفق غزير، انه لا يعرف الجفاف ولا الظمأ ولا الانكسار و
لذلك اتصف بالفتوة على طول الرواية إشارة على قوة أهله وإصرارهم على البقاء
فكان حاضن الطفولة والصبا والفتوة الأول، انه الرفيق المؤازر للراوي ولصحبه
الوثابيين يوماً والدارسين الجادين يوماً آخر، انه الماء الذي شهد البداية، بداية
الخلق وأول التكوين (كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام، وروح
الله يرف على وجه المياه..)^(٨).

والنهر رمز العبور فهو بقدر ما يكون شاهداً وعاكساً لرغبات الناس وحالاتهم
النفسية بشكل يؤسّر وقائع حياتهم فانه يقودهم من أيديهم كذلك للدخول في
معتبرك يدل على الانقياد للأقدار والتسليم السهل لها حينما يجري هادئاً كثيفا
حيث يصغي الجميع لنداء خفي يدعوهم إليه فيستجيبون للنداء^(٩) .. إنهم يقذفون
فيه وعبير زمنه الجاري همومهم الزاخرة ومرارة الحياة التي حولتها الحروب
المتكررة إلى واحة من العذاب الذي لا يجد خلاصه إلا في أعماق هذا الماء الذي لا
يكف عن الإيحاء بخصب مأمول، وعن خلق القدرة في الروح الإنسانية على
التجدد، انه الحقيقة التي تعلن عن وجودها في أمواجه كلما غابت تجلياتها في

٨. العهد القديم، سفر التكوين، ١

٩. دلالة النهر في النص، جاسم عاصي، ٦٦، دار الشؤون الثقافية العامة، الموسوعة الثقافية، بغداد،

ط١، ٢٠٠٤.

واقع بائس يعمل الغزاة على تلوينه كل يوم بالصواريخ وشظايا القنابل حيث يموت الإنسان وتدفن أحلامه ويلحق العقم بنسائه والتشويهات بطفولته البريئة.. انه المرأة الصافية التي تذكر إنسان هذا المكان بأهمية التشبث بإنسانيته الأصيلة، لكن التلوث بالسلح السام لا يبقى رمزا لتهديد انسان العراق، كون الماء الهادر في دجلة سيزيحه؛ ليحل محله كل يوم ماء جديد، ماء كلما لوثه أعداء الإنسان مضى متحديا ليرمي بالسموم بعيدا..

دجلة إذن رمز لكل القيم التي يعمل العدوان بإصرار على إلحاق فقدان بها و الانفراط بمنظوماتها، انه المرجع الذي يؤول إليه الإنسان دوما في فرحه و انكفائه، في حزنه وتجلياته، فهو المطهر والصفاء والخلص به تقتبرن الحياة و تناقضاتها، ولا تقتصر حركية الماء على النهر بل تتعداه إلى كل مصادر المياه المتوفرة في المدينة ليس فوق الأرض حسب، بل هناك بعيدا في أغوارها، إشارة إلى اكتناز هذه الأرض الموصلية العراقية العربية بجذور الحضارة الإنسانية وقيم السماء وكرامة الأولياء

(وأنا ارقب الهلال المعلق بالسماء يرتعش لهفة بين
يدي الشيخ فتحي وصرخته المباركة بالخضرة أقف
قريبا من البئر ومعني الدلو لاستخرج الماء الطهور من
جذر الأرض المحروسة بدعاء الملائكة..)

(الرواية، ٥)

بيني وبين نفسي النهر دائما.. بيني وبين قلبي النهر
دائما

ص ٧

والموصل مدينة المرمر المقدس، قوته بصلاية أهلها و صفاؤه يختزن جمال رؤاهم وابتكارهم الذي قدم للبشرية العربية الأشورية رمز التواصل و الوصول و المحبة كما قدم أول مكتبة في العالم اجمع ونحت الثور المجنح رمزا للصعود بأجنحة صلبة نحو العلى، صعود بالقوة التي ترتقي ولا تعرف الهبوط والانهيار.

وتواصل الموصل حضورها في الرواية شجنا و عطرا يفوح من غاباتها المكتظة على طرفي نهر لا يكف عن الابهتال، نهر تزدهم القباب حوله و تظله النوارس بأجنحة من نور. و يتماهي النهر بالزمن كليا حينما يعلن الراوي ذلك.

هواء النهر الذي يجلب معه رائحة تراب التاريخ و

الأزمة السحيقة، يضعني في وهج ذكريات حية تتدفق
وتهاجم ذاكرتي لتعلن أن للنهر مطبات وتقلبات وأن
كنايته التبديل والتنوع تماما كالموت.....
دجلة يا دجلة، سلسبيل ينبض بالحب وروح تشرق
بالعبوات، عبق يسري برائحة السعد وسجادة موشاة
بزهو الحند قوق، سماء مطوقة بغناء الفواخت، و
سماء تطرح السؤال وتكون الأجوبة لك؟!
من يفقه سر ارتمائك في السهول والوديان، ومن
يعرف لماذا تعدو بلا قدمين، ولم لا تكف عن
الجريان..؟

(الرواية، ١٢)

إن هذا الخطاب لدجلة يتشكل عبر ترتيبات تبتهل، ترتيبات تقدر دجلة
وماءها الذي يمنح الحياة والزهو والجمال.

كيف تتشكل مدينة الموصل دون هذا النهر الطالع من أعماق التضاريس، الآتي
من أعماق الجبال قاطعا المسافات، حاملا أشواق الأرض والإنسان في قلبه الخالد
الكبير، إن الراوي يكشف في سرده عن أهمية التأثير العميق لهذا النهر في ذاكرته
وفي الشهادة على طفولته وصباه وشبابه وفي تشكيل وعيه، إن - أنا - الراوي هنا
هي ليست أنا فردية، إذ لا توجد في الأدب ولا الفن أنا فردية ذاتية خالصة، بل هي
الأنا التي تمثل الشعور الجمعي، أنا العراقي النبيل الذي ظل يرفض ما جرى وما
يجري على نبل شعبه وأصالة وطنه من عدوان. لقد كان دجلة الملاذ في الألم وكان
الفرح وشيطنة الطفولة معا، وكان المطهر ورمز العودة إلى الأصول حيث الأمان
ورحم إلام، وفي أعماق الماء يتحرر الإنسان من التشكلات المادية والمعنوية حيث
تخف الأجسام وتذوب الألام وتتطهر النفوس. ان جماليات الأمكنة والمدن
والفضاءات لا يمكن لها أن تتجلى إلا بحضور الماء فيها، وبحضوره يتم الانسجام
ويسود الكون التوازن المنشود.

إن تأكيد الراوي على مركزية نهر دجلة الذي يخترق المدينة من شمالها إلى
جنوبها، والعراق من جباله إلى احواره في عملية السرد إنما هو تأكيد على تاريخ
العراق الواحد الممتد الجاري من عمق التاريخ إلى صميم المستقبل لا توقفه

العوائق ولا تعترض مسيره العقبات، إنما تحيط به على الجانبين جوامع وكنائس ومساجد رمزا للمقدس الذي يصل جذور هذا الشعب المجاهد بأعراق الأرض ورؤى السماء ويعلق على أرضه أوسمة التواصل، وهناك بالقرب من بصرة العراق الصامدة، البصرة التي وسعت أحزاننا في كل الحروب والملمات، يلتقي دجلة بشقيق الروح.. الفرات في وحدة لا انفصام لها مهما حاول دعاة التقسيم وتفكيك الجسد الواحد وتجريح روحه.

ولدجلة سمة تميزها عن غيرها من الأنهار ففي حين ترمز الأنهار لسطوة الذكورة والإرواء والهيمنة فإن دجلة رمز لاجتماع السطوتين معا ذكورة في مفردة النهر اللغوية التي تضفي الفحولة والقوة على دلالاته وأنوثة في اسم العلم تقفله تاء التأنيث المدورة والتي تخفي الوحدة مرة أخرى، وتخفي أسرار الإنسان والخصب وديمومة العطاء التي تتصف بها المنطقة مما يوحد بين الجلال والجمال معا لكن كل هذا الجمال يتشكل في لغة الرواية أرضا وسما ونهرا ومعطيات حضارة يظل مهددا بصواريخ وطغيان عدو شرس...

(ظهر اليوم والشمس تشرق بالحبور انطفأت السماء
فجأة، جاءت الطائرات من وراء البحار والمحيطات لم
تعد السماء زرقاء فالدخان قد طوق قلبها المثقل
بالأسى ولم تعد الغابة خضراء فشجر الدم يتشج
بالرماد والجذور تنبض بالبكاء. أحسست أن الأشجار
تومئ للطائرات المكتظة بالدمامة والمشحونة
بالخطايا، ومطر النار ينهمر من فك الطائرات المفترس
للعشب، والأشجار تنتصب في وجه الريح تضئ الروح
فيها وتفرد الأغصان أوراقها وتتجه صوب الشمس،
قلبي يئن، والنهر يئن بجراحه، يحتضن صدره سموم
الرصاص، رصاص في الغرفة ورصاص في مياه النهر
الصافية، والنهر يرتعد غضبا ويرقب عبث الطائرات،
والطائرات لا ترعوي تمعن في نفث السموم وعبثا
تحاول إيقاف نشيد النهر)

(الرواية، ٣٥)

مشهد مكثف يختصر العدوان وضراوة المقاومة، وردود فعل الطبيعة الرافضة، كل شيء في هذه المدينة الباذخة يدفع الشرويقف بوجه النار الحاقدة

الآتية من مخططات التدمير والتفكيك من اجل أمركة تسجن العالم بعولمة تعمل على إلغائه وطمس هويته، ويقوم المشهد السردي على تخطيط ثنائي في إرساء صورته فشروق الشمس يقابله الانطفاء بالطائرات وما تقذف، وخضرة الغابة تتحول إلى الضد، إلى دم ورماد وبكاء، ومقابلة أخرى ما بين رصاص، رصاص داخل الغرفة لحماية الإنسان من الوجود ورصاص على النهر لقتل الإنسان.

و يلتفت الراوي إلى القلعة التي صعدت الغزاة، وظلت باذخة تذكر المتورطين مرة أخرى بالهزيمة..

(يا نجوم هذه القلعة التي تجاور السماء ويا رأس هذا العراق، يا مهرا يندفع نحو الشرق ويوقف زحف جراد الغرب، يا سورنا وحصننا الشرقي...)

(الرواية، ١٢)

"كل شئ يذكر بالجراد الزاحف نحو المدينة طمعا بهاو نيلا من تاريخها.

ويواصل الراوي عرض الآثار الشاهدة في مدينة الموصل بدءا من الماء الذي يحتضن الثراء والنعم والدواء والشفاء:

(حفيف الموج يوحد بين عرق الجنيات المسحورات الساحرات من عين كبريت وحرير المياه يطوينا و يأخذنا إلى باشطابيا وقررة سراي وتشهد وتشهد يادجلة الموصل.... الجسد الشاهد والشهيد، والموصل السيف... مأثر نور الدين الشهيد... ويحى دم نافريلغي الأغلال ويعلن الشهادة ويجمع ويوحد شظايا الجسد العربي ويندفع صوب خيول الفرنجة يمسخها حجرا ويترنم بنور القران.. ونشهد نشهد يا دجلة كيف جثا العجم عند أسوار القلعة..)

(الرواية، ١٣)

نعم جثا العجم عند أسوار القلعة يوم هزم صمود موصلية العراق وحكمة قيادتهم عنجبية نادرشاه، ودحروا جنده في الرابع من رمضان في عام ١١٥٦هـ،

وبا شطابيا هي بقايا القلعة الاتاكية، ويعتقد أن العقليين أول من شيدها، وهدمت في حصار تيمورلنك للموصل عام ١٣٩٣ م وأعاد بناءها العثمانيون. سميت باشطابيا نسبة إلى قوتها ومناعتها وارتفاعها، وتقع في الزاوية

الشمالية الشرقية من القلعة الكبرى، وهي برج من اكبر أبراج سور الموصل و أقواها ولذا أطلق عليه في اللغة التركية (باش)، ويشرف موقعها على دجلة و السهول المنبسطة شمال الموصل و قد وسعها الولاة العثمانيون و بنوا فيها غرفاً للجيش و مخازن للعتاد و الذخيرة و وصلوا سورها المتين بسور المدينة و جعلوا فيها فتحات للمدافع و أخرى صغيرة للبنادق، و حين حاصر نادر شاه الملقب طهماسب الموصل عام ١١٥٦ هـ، ١٧٤٣ م اتخذها حسين باشا الجليلي مركزا للقيادة يشرف منها على جيشه^(١٠).

اما قرة سراي فهي منطقة قصور المملكة في عهد الدولة الاتابكية جنوب قلعة باشطابيا و كانت قصورا عامرة و حدائق غناء و نافورات و تماثيل^(١١).

و بعد اندحار نادر شاه و جنده على يد أهالي الموصل انهزمك الموصليون بترميم سور بلدتهم التي افتداها الشهداء...

(ونشهد معك حنو الجامع الأحمر و صينية الشموع
تمور بالنذور، و تنير صدرك الرحب يا دجلة، والخضر
يمشي على الماء متشحا بالنور، منتشلا اليتامى و
الفقراء من حمأة الجوع و الحصار و الفقراء يترنمون
بالنشيد و يبتكرون ازرق السماء)

(الرواية، ١٣)

إن الراوي يسجل احتفاء الموصلين بنبي الله الخضر محقق الأمانى و صاحب النذور و الشموع ، و الخضر نبي معمر محبوب عن الأبصار قيل له انك لا تموت إلى آخر الزمان، و اختلف في حياته أيضا فهو حي عند جمهور العلماء، قيل مقامه في الجامع الأحمر (الخضر) على الجهة الشرقية من نهر دجلة و قيل مقامه في الجامع النوري، و من آياته في المخيلة الشعبية انه يمشي على الماء فجرا و انه مخلص من رآه و محقق مراده.

(كان هدير الطائرات يصلني من سماء بلدي و كنت اعرف أن القصف يثرم البشر الآن، يحرق الغابات التي شهدت جنون و حمق طفولتي التي تنتمي إلى النهر الذي كان هو الأخيرين تحت القصف و السماء...

١٠. بحث في تراث الموصل، سعيد الديوجي، ٩٩، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٢.

١١. الموصل أيام زمان، أزهري العبيدي، ٢٣، ٢٤، مطبعة الراية، بغداد، ١٩٨٩.

دخان اسود يهبط على الدنيا)

الرواية، ١٨.

إن الفعل كان الذي يضم زمنا استرجاعيا ما يلبث أن يحضر بين أونة وأخرى حاملا الراوي إلى عذاب أهله وشعبه الذي أرهقه ظلم الطغاة من قبل من لا جذور لهم في التاريخ ولا هوية حضارية تميزهم ولا كينونة، في معادلة توازن بين الإنسان الجميل الذي يتعذب وجماليات المكان الذي أنهكته الحرائق والهدم ومحاولات التدمير ولذلك يختار من الأمكنة أجمل فضاءاتها: الماء والشجر، النهر والغابات، وفي الغابات كذلك بعد زمني مضمر، فقد احتاجت بذور الشجر زمنا طويلا، كثيفا متراكما لتتحول إلى غابات، مما يدل على قدم المكان وكونه فضاء زراعة وحضارة واستقرار من قديم الزمن، فمدينة الموصل في معالمها المكانية والأثرية فضاء أصيل معمر، وطول عمره بهذا الحضور دليل على امتلاك أهله القدرة على الاستمرار بما يحملون من إرادة خلاقية على البناء ومن وعي لأهمية التواصل الذي ينطلق من وعيمهم بدور مدينتهم التاريخي فهي وريثة نينوى عاصمة الأشوريين وموطن أول مكتبات الدنيا علما وحضارة ومعارف وصاحبة العربية الأثرية أول أداة تواصل بين الإنسان والأماكن فضلا عن مزاياها الإستراتيجية في خصب الأرض ومركزية الزراعة والتجارة وأهمية موقعها الجغرافي الذي ظل يجذب إليه الأنظار.

ويواصل النهر - الزمن في الرواية حضوره حتى آخر صفحة مؤكدا امتلاك الراوي وأهله لزمينهم وقدرتهم على تخصيصه وتخليصه من الأدران والشوائب والطوارئ والمحتل طارئ والطارئ يذهب دوما ليبقى ما هو أصيل وقادر على المكوث في الأرض:

(ويمضي النهر منشدا أغنية الأبد...
يسلمنا إلى الينابيع ودهشة الطفولة)

الرواية ٦١

لقد تبوأ المكان في هذه الرواية مركز البطولة النصية فقد حازت الموصل على حضور علامي ودلالي في النص يؤكد ذلك كثرة العلامات اللغوية التي تخص أمكنتها بأبعادها الإستراتيجية والثانوية في الشريط اللغوي للملفوظات^(١٢) فقد

١٢. شعرة المكان في الرواية، ٣٦٨.

كثرت أسماء المناطق السكنية والجوامع والشوارع والمحلات مما يؤكد هذه السطوة التي تتكى على خلفية فلسفية تختلف عن فلسفة الآخر الغربي، فالرواية الجديدة في الغرب انطلقت من مقولة مؤداها أن مادة الفن ليست في الذات وإنما في الموضوع لأن العالم الخارجي بكل ما فيه من أشياء مادية أصبح يعلن استقلاله عن الإنسان وتمرده عليه، مما أدى إلى تحول العالم الخارجي من فضاء يفيض بالدلالة والمعنى وقيم الألفة إلى ركام من الأشياء التي لا تعب بالكائن، ولا تألفه وذلك ما يقيم بينها وبين الإنسان اغترابا ووحشة، بينما تنطلق هذه الرواية من رؤية الاندماج المصيري مع المكان كونه جزءا من الهوية وحاضن التاريخ المشترك لشعب مهدد بمكانه الذي هو الأرض وبحضارته التي هي نتاج تفاعله الإنساني معها، ولذلك لم يكن الإنسان وحده الذي يقاتل المحتل، بل كان المكان بكل عناصره مقاوما عنيدا في صد عوامل الشر واستهجانها والتوجع من آثارها.

ان زمن الرواية بالرغم من جريانه متدفقا إلى الأمام إلا انه في جريانه يدور ليعاود الرجوع الى الطفولة حيث الينابيع الأولى وكأنه بهذه الدورة يعمل على محاصرة المحتل ليحكم عليه القبضة ويرديه مخذولا كما هو مصير الطفلة و المعتدين عبر التاريخ.

لقد وردت الاماكن في اكثر الاحيان أليفة وديعة وحميمة تربطها بناسها عبر السياقات روابط المحبة والاحتواء كما يلاحظ التنوع بالأمكنة التي يغلب عليها الطابع الشعبي الحريص على مواصلة التعليم والذي انهمك أبناءه بمتابعة القضايا الوطنية والقومية والإنسانية وحب الوطن مما جعل الرواية وثيقة موصلية وطنية سطرت عذاب شعب طال معاناته لا لشيء الا لأنه رفض الانصياع لاطماع المعتدين.

ملحق بأسماء اماكن مدينة الموصل التي وردت في الرواية

| الصفحة | اسم المكان |
|--------|---------------------|
| ص ١ | الشيخ فتحي |
| ص ٢ | الغابات |
| ص ٣ | دجلة الموصل |
| ص ٣ | تغفو قلعتها |
| ص ٥ | الشيخ فتحي |
| ص ٥ | مقام الشيخ فتحي |
| ص ٥ | البئر الطهور |
| ص ٦ | الشيخ فتحي |
| ص ٨ | الممر الموصل المقدس |
| ص ٩ | غابات الموصل |
| ص ١٢ | دجلة |
| ص ١٢ | القلعة |
| ص ١٢ | يا سورنا |
| ص ١٢ | حصننا الشرقي |
| ص ١٣ | دجلة |
| ص ١٣ | عين كهريت |
| ص ١٣ | باشطابيا قره سراي |
| ص ١٣ | الموصل |
| ص ١٣ | نور الدين الشهيد |
| ص ١٣ | دجلة |
| ص ١٣ | أسوار القلعة |
| ص ١٣ | الجامع الأحمر |
| ص ١٣ | الخضر |

| | |
|------|---|
| ص ١٧ | نبي الله يونس |
| ص ١٧ | منارة النبي يونس |
| ص ١٧ | حضرة النبوة |
| ص ١٩ | الغابات |
| ص ١٩ | صفرة البابونج الموصل |
| ص ٢٦ | باب الطوب |
| ص ٢٦ | سوق هرج |
| ص ٢٨ | مشفى الطب النووي |
| ص ٢٩ | مصيف بالكيف |
| ص ٣١ | محلة المشاهدة |
| ص ٣٢ | دجلة |
| ص ٣٢ | غابات الموصل و أسواقها القديمة |
| ص ٣٢ | الموصل |
| ص ٣٢ | دجلة |
| ص ٣٥ | القريب من المشفى |
| ص ٣٦ | الكنيسة الطاهرة |
| ص ٣٦ | منارة الجامع |
| ص ٣٩ | تل فرجة |
| ص ٣٩ | شاهدة قبر العروس |
| ص ٤٠ | حديقة آل توحله |
| ص ٤١ | بيت الجماسة المشرف على النهر |
| ص ٤١ | الشواريق على ضفاف النهر |
| ص ٤٣ | الموصل لي |
| ص ٤٣ | بيوت الموصل القديمة |
| ص ٤٤ | مشفى الخنساء |
| ص ٤٤ | الساحل الأيسر للمدينة إلى الساحل الأيمن |
| ص ٤٥ | مقابل مبنى رئاسة جامعة الموصل |
| ص ٤٥ | حي البلديات |
| ص ٤٥ | مؤسسة الكندي |

| | |
|------|--------------------------------|
| ص ٤٦ | الكنيسة الطاهرة |
| ص ٤٦ | كنيسة موصل الجديدة |
| ص ٤٦ | وادي حجر |
| ص ٤٦ | محلة عبدو خوب |
| ص ٤٦ | منارة الحدباء في الجامع النوري |
| ص ٤٦ | الجسر العتيق قرب البلدية |
| ص ٤٦ | الجسر العتيق قرب البلدية |
| ص ٥٢ | قلعة باشطابيا |
| ص ٥٢ | قرة سراي |
| ص ٥٢ | الأمام عبد الرحمن |
| ص ٥٤ | نشيد نينوى |
| ص ٥٥ | الحضر |
| ص ٥٥ | أشور |
| ص ٥٥ | مملكة عربايا |